١- الإمبراطور الذي هوى

▪ محمد علي باشا

" ننظم جندنا نظما[1]

عجيبًا يعجز الفهم

بأسد ترعب الخصم

فمن يقوى يناضلنا

رجالٌ مالَها عددٌ

كمالُ نظامِها العُددُ

حُلاها الدرعُ والزردُ

سنانُ الرمحِ عاملُنا

وهل لخيولِنا شبهُ؟

كرائمُ ما بها شبهُ

إليها الكل منتبهُ

وهل تخفى أصائلُنا

[1] نشيد الجيش المصري الأول من نظم رفاعة الطهطاوي

لنا في الجيشِ فرسانٌ

لهم عند اللقا شانٌ

وفى الهيجاءِ عُنوانٌ

تَهيمُ به صواهِلُنا

لنا الرؤساءُ أبطالُ

رجالٌ أينما جالوا

بصولةِ عيلمٍ صالوا

يفوقُ الحدَ صائِلُنا

لنا في المُدْنِ تحصينٌ

وتنظيمٌ وتحسينٌ

وتأييدٌ وتمكينٌ

منيعاتٌ معاقِلُنا"

القلعة عام ١٨٤٦م

اقترب من الثمانين؛ يشعر أن أجله قد حان، جمع رجاله وكبار موظفي دولته على مائدة عشائه بالقلعة؛ طلب منهم أن يردوه إلى الحق.. حاول إقناعهم بأنه لم يعد يعلي شيئًا سوى مصلحة الوطن وإسعاد مواطنيه، وعلى غير عاداته قال:

" إذا كنت آمر أحدكم شفاهًا أو تحريرًا بقولي له: أجْر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض عليّ وذكرني وأفادني شفاهًا أو تحريرًا بأن المادة المذكورة مضرة، فهذا يكون منه عين ممنونيتي الزائدة، وأنا مرخص لكم في ذلك الرخصة التامة المرة بعد المرة".[1]

لعل هذه الكلمات الغريبة على أسماعهم لم تزدهم إلا خوفًا، لم يكن بهذه السلاسة من قبل، لابد أنها مكيدة جديدة، لم يجد من مجيب.. فقط: أنت ولي النعم، أنت أفندينا، لا تخطئ أبدًا... الأمر أصبح أكثر حيرة بعدما سمعوه يكمل؛

[1] من نص كلمته التي نشرت بالوقائع المصرية.

"ولتعلموا أنكم إذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن وصاعدًا ولم ترجعوا عن طرق المداراة والمماشاة ولم تقولوا الحق في كل شيء ولم تجتهدوا في طريق الاستواء، ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة. فلابد لي من أن أغتاظ منكم جميعًا، ولما كنت موقنًا بتقدم هذا الوطن العزيز على أي صورة كانت، وملتزمًا فريضته علي صرت مجبورًا على قهر كل من لم يسلك هذا الطريق المستقيم اضطرارًا مع حرقة كبدي وسيل الدموع من عيني"

كلام لاذع وساخر وصريح للغاية. إن لم يكن وقحًا كل الوقاحة، نظر إليهم بعينيه الرماديتين اللتين لا تخلوان من الحياة، ونهض من على كرسيه وحرك قامته القصيرة وجسده الممتلئ وضرب بذراعيه القصيرتين على طاولته واستحق الجالسون لقب "أشيك"[1].

مقولته هذه الذي جمع قادته وحاشيته ليقولها؛ ترسخ في نفسه، هل تشفي وتثلج صدور الحاضرين، هل كان يخاطبهم أم كان يخاطب نفسه؟ هل عاد فعلا لا يبغي من الحياة سوى مصلحة شعبة؟!!، أم أحس أن أسطورته أوشكت على الفناء؟ هل عاد يتذكر حمام الدماء الذي أساله من المماليك؟

---

[1] أشيك بالتركية تعني: حمار بالعربية

كل الليالي كان يخاطب دهاءه.. يتحدث معه في جلسة بعيدة عن موطن العقول.. دائمًا ما يفاجئ حتى نفسه بأفعاله التي هي بالفعل غابة شائكة من الأفعال المحسوبة، نُظمه غير مألوفة، بدأت تنتابه الآن رعشته المعهودة التي طالما تذكر فيها حرق ابنه إسماعيل في السودان أو هذه المذبحة التي أباد بها المماليك، أنه يتذكر زوجته التي هجرته بسبب فعلته هذه.

القلعة ١٨٤٧م

أخذ يدقق فيه؛ يتمعنه بشكل مريب، لا يعلم ما الذي حدث لهذا الذئب، ما الذي يفعله مولاه! لا يعلم لماذا يتصرف بهذه الطريقة! اعتاد أن يعامله بلينٍ. إنه الآن لا يعرفه، كل شيء تغير، أفعاله دعته لأن يتساءل هل هذا أفندينا؟!! لا يستطيع أن يصدق، هل هذا الساكن الخانع المرتكن في طرف غرفته.. هل هذا هو محمد علي باشا؟!!، لا يصدق.. إنه هو جسدًا لكن ليس عقلا.. أخذ يتذكر عندما ذاع صيت تلك المشعوذة العاتية التي أرهبت المحروسة بسحرها وأقنعتهم بأنها صاحبة القوى الخفية، وصديقة أسيادنا... عندها أمر الذئب بربطها بحجارة ورميها بالبحر، تذكر كيف كان جبارا ثابتًا، وهنا سلم الشعب بأن محمد علي قاهر الأساطير وصاحب الخوارق وحفيد الأولياء.

❊ ❊ ❊

في إيطاليا الابن والأب في رحلة استشفاء، متعثر بشدة في مرضه، يؤلمه أكثر مرض ابنه الغازي، دائما كان يتساءل من يحكم مصر، هذا المريض العليل "**إبراهيم**" أم هذا الضعيف المتسلط "**عباس**"، كل الأطباء عجزوا عن وصف دواء لدائه، علته شديدة، يعلم أنه في آخر أيامه، تُقتل كل يوم خلية من خلايا عقله الثعلبي.

في ديوان الغوري ١٨٤٨م

يجتمع الغازي إبراهيم، الذي طالما لام أباه على عدم تركه مواصلة انتصاراته وفتوحاته، هو الآن على رأس جلسة يتناقشون في أمور مريبة، أمور سوف تغير حياة هذا الذئب، تقلب الموازين، انتهت الجلسة وبعد ساعة، وعلى دقات المنادي، يعلو الآتي:

" إنه نظرًا لمرض محمد علي فقد تشكَّل مجلس فوق العادة تحت رئاسة إبراهيم باشا؛ لتسيير دفة أعمال الحكومة، واجتمع الديوان في ٢٤ من شوال بحضور العلماء والمشايخ وأشراف البلد ومن لزم حضوره من الذوات بديوان الغوري حيث قرئ على رؤوس الأشهاد الفرمان القاضي بتعيين إبراهيم باشا واليًا على مصر وصدر فرمان التقليد من الباب العالي"

عاد إبراهيم إلى قصره، دخل إلى غرفته، أغلق على نفسه الباب، ظل يخاطب نفسه كيف يتعامل مع ولي نعمه وأبيه، كيف يتدبر أمره في إدارة شئون البلاد، تلك البلاد الضاربة في التاريخ والقديمة قدم الإنسانية نفسها، هل يصبح أباه الثاني، بدأت ضحكاته المتقطعة تتعالى، لم تنتبه روح السلطة أو يتلبسه الفرح بتقلده على رأس الدولة، لكنه تذكر مولاه وولي نعمته؛ حينما جاءوه بذاك المصور الفوتوغرافي ليخرج من آلته هذه بعضًا من الدخان، فيزمجر أبوه: ما هذا؟! إنه رجس من عمل الشيطان، اذهب بعيدًا أيها الشيطان!!

رأس التين ١٨٤٨م

الآن، بدأ المرض يسري في عقل وجسد الذئب، فصار لا يعرف أحدًا، ساكنا في مكانه، شاردًا بذهنه في رحاب السماوات؛ لعله يتذكر إنجازاته، لعله يبكي على حاله، محكومًا عليه بالنفي داخل جدران ذاكرته، يلمح طيف ابنه طوسون يذكر كيف قدم له العون، لعله يتذكر ابنه الذي مات بعد مرضه، هو الذي أرسله للموت والمرض، ابنه هذا الذي كان ظل المكيدة التي أباد بها المماليك، فقد أتى الربيع وأجراس العمر تدق على ابنه طوسون فهذا ميعاد مولده، سوف تضاف سنة جديدة إلى عمره، كان الاحتفال مهيبا، دعا الذئب حينها كل المماليك،

سوف يغادر ابنه طوسون إلى الحجاز، جلسوا للتسامر، احتسوا القهوة، أغلقت الأبواب، أمطرت السماء عليهم بوابل من الرصاص، الدماء متفرقة في أنحاء القلعة، والذئب يجلس مضطربا ويشد أنفاس نارجيلته، الهلع واضح على ملامحه، حول الاحتفالية إلى بركة دماء وحمام انتقام، كل هذا ليثبت قدمه في أرض النيل، هو الآن يتذكر حينما أعطى مفاتيح الكعبة للسلطان العثماني..

الآن أصبح الأمر موجعًا؛ دخل عليه الحجاب: يا ولي النعم مات ابنك إبراهيم، مات الغازي، لم يتفهم شيئا مما قالوه؛ نسي من هو إبراهيم أصلا، لم يرمق، لم ينظر أساسًا، يسبح في غيبوبةٍ يقظة، يعلم أن ثمة شيئا كبيرًا يحدث ولكن لا يستطيع عقله تدبره، مات ابنه الغازي الذي طالما انتصر لإرادته، لعل الدماء التي أريقت هي التي تؤرقه تخرجه من عقله، لابد أن موت أغلب أبنائه هو السبب فيما يحدث له، لم يظهر ضعفا أبدًا، فهو – دائما – ما يتكلم بدهاء، ويتحدث في حكمة، أم أن فقده للجيش سبب آخر في وعكته؟

الآن، عباس الأول يأتي من الحجاز، كان هاربًا من غريمه إبراهيم باشا في الرأي والمزاج، يأتي الآن بعد أن أوصت لجنة الاثني عشر، تعيينه على رأس الدولة، فدار الزمان ليصبح الهارب واليا ويصبح الحاكم تحت الركام.

رأس التين ١٨٤٩م

تنتابه الآن ذاكرة المحتضر، يمر شريط حياته ويعبر أمام عينه، تحاصره أفعاله، ينتعش في ذكرى طفولته، يتذكر كيف كان يقتفي أثر أبيه، أراد أن يصبح جنديًا، تذكر عندما كان محجمًا عن الذهاب لمصر المحروسة، ويتذكر وجه ذلك الشيخ الصوفي ولحيته البيضاء، هذا الذي نبأه بأن على جبينه النصر[١]. يتذكر الآن نقيب الأشراف عمر مكرم الذي نفاه إلى دمياط بعد أن قلده الحكم، فلم يجزيه خيرًا على فعلته بل أطاح به ليكون جزاؤه هو جزاء سنمار.

[١] جاء محمد على إلى مصر مرتين؛ الأولى في عام ١٧٩٩م مع الحملة العثمانية البحرية التي جاءت لإخراج الفرنسيين من مصر أيام نابليون واشترك في موقعة أبى قير البرية وجاء مرة أخرى في عام ١٨٠١م ضابطا في فرقة الجنود الألبان واشترك في الوقائع الحربية التي انتهت بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر وبقي بها من ذلك الوقت، وعندما آل الحكم في مصر للدولة العثمانية بعد جلاء الحملة الفرنسية عنها عين السلطان العثماني خسرو باشا واليا على مصر، وبعد قليل بدأ النزاع بين الأتراك والمماليك فأخذ خورشيد باشا يرسل الجيوش لمحاربتهم ولكنه هزم مرة في الصعيد ومرة أخرى في الوجه البحري فطلب مساعدة محمد على ولكنه امتنع عن مساعدته.

أظهر التمنع في هذه الجلسة التي أجمع فيها العلماء على عزل خورشيد باشا وتعيينه واليًا، لكنه كان المحرض للأمر، فنجحت حيلته، هو من قال "**أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة** " فتهافت الجمع

"**قد اخترناك لذلك برأي الجميع والعبرة رضا أهل البلاد**".

يتذكر عندما ترجموا له كتاب الدهاء "الأمير"[1] فرماه وقال لهم ما هذا الطفل، لم يصل بعد إلى أدنى مستوياتي، إنها الآن نهايته في ذلك القصر، إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة بالإسكندرية التي طالما عشقها، يحبها، تذكره بمعجبه الأوحد نابليون، هذا الذي حاك خطة ليهربه من الجزيرة التي نفي إليها "سانت هيلانة ".

[1] كتاب "الأمير" لميكافيللى: من الكتب الأكثر جرأة في العالم، وقد أثار هذا الكتاب جدلاً واسعًا عندما نشر لأول مرة في أوروبا؛ لأن ميكافيللى تناول فيه أخلاقيات السياسة وهو شيء لم يسبقه أحد إليه، وقد أجمع النقاد على أن ما فيه من أخلاقيات شريرة، وقالوا إن الكتاب لا يناسب إلا الطغاة الأشرار من الحكام.

طالما فكر مثله، طالما أراد أن يصنع إمبراطورية تفوق الإمبراطوريات العظمى، صنع جيشا عظيمًا أسسه من المصريين، تعلم جيدًا من صديقه نابليون، أنشأ نواة للمدرسة الحربية بأسوان،

رفع روحهم المعنوية ووطن لفكرة القائد، فعلا مجده وعلت سمعة جيشه، ويأتي رفاعة الطهطاوي وينشد لهم النشيد الأزلي.

يأتيه عقله بين الحين والآخر، صحوة المحتضر، التف حوله أبناؤه، أراد أن يوصيهم، ويلفظ آخر كلماته، يقاوم سكرات موته ويقول

"ليس لكم يا أولادي وطن غير مصر، فإن لم تسلكوا سبيلي وتتبعوا خطواتي فلا عز لكم وأنا منكم بريء"

إنه الآن لا يستطيع حتى تدبر أمر نفسه، اشتد مرضه عليه فقد عقله ففقد حكمه؛ فقد جسده، فذهبت روحه لبارئها وخالقها، وطوت الأرض حاكمها وأزيح الستار عن حاكم أنار الدرب لأبنائه فأفلت شمسه لكنها سطعت بين التاريخ.

أخـذ سـعيد عـبء العـزاء، اسـتقبل الوجهـاء والنظـار والأهالي مصطفون على الطريق المؤدي لقصر رأس التين ينتظرون عبـور جثمـان عزيـز مصـر، النـاس غير مصـدقين، الأخبـار تطير والصحف تسطر "الباشـا.. عزيز مصر الكبير.. قـد مـات"[1]، أخـذت البـاخرة رفاتـه وعبرت المحمودية وذهـب جسـده مـن رأس التـين للقلعة فهناك قد بنى قبره، وانتهى عصره وجاءت سلالته.

❊ ❊ ❊

[1] كتب القنصل الإنجليزي العام بعبارة بليغة وبتأثر غير مألوف فقال:" إن ما تظهره كافة طبقات السكان في مصر من الحب والتمجيد لاسم محمد على يسمو في روعته عن أي موكب جنازة اجتمع لخلفه فلا يزال الشيوخ من السكان يذكرون فضل محمد على في تخليص البلاد مما كان فيها من الفوضى والاضطرابات. أما الشبان منهم فإنهم ما فتئوا يقارنون بين عهده النشيط وعهد خلفه القائم على التردد والتذبذب وأخيرا فإن سائر الطبقات بما فيها الأتراك والعرب لا يحسون فقط بل يخشون التصريح علانية بأن يسر مصر ورخاؤها قد انقضى بوفاة محمد على.. وفى الحقيقة ليس من سبيل إلى إنكار أن محمد على كان برغم غلطاته رجلا عظيما)

■ ضريح محمد على باشا